أيهما أفضل

حين تذهب إلى عزاء، أم حين تدعى إلى فرح؟!

إنك في المشهد الأول تكون موتوراً حزيناً، كئيباً في مظهرك، يختلج الأسى في قلبك، والدقائق تمر بك كالساعات، وبودك مغادرة اللحظة والمكان في أقرب وقت، إذ لا مكان للابتسامة هنا، ولا تسمع إلا النياح والصياح والبكاء، وأحياناً تجامل بتصنع الحزن لتشارك الناس مصابهم ولو ظاهرياً، ولعل لحظة المجاملة ذاتها أثقل على النفس من الموقف الذي أنت فيه، والنفس دائماً تنزع إلى سوى تلك اللحظات العصيبة.

في المشهد الثاني تكون في أبهى حللك، وأنقى صورك، سعيداً مغتبطاً، تمر الساعات كالدقائق، والابتسامات تتوزع هنا وهناك، وحتى لو جاملت بإظهار السعادة فإن الضحكة ستكون أيسر من الدموع، وموقف الفرح يحتمل الحزن، وستجد من يواسيك ويقف معك إن أصابك غم في موقف فرحك، ولكن لا مكان للفرح في موقف الحزن، وإن فعلت ذلك همزك الناس ولمزوك وتحاشوا قربك ونبذوك، وأصبحتْ وصمة عار تلاحقك أينما ذهبت تلك الضحكة البلهاء في ساعة الدموع.

هذه المقدمة تهدف إلى تنبيه أذهان دعاتنا الكرام وأئمة مساجدنا الأفاضل إلى أن الإنسان يستطيع في ساعة ابتهاجه وفرحه قبول واستيعاب أمور كثيرة لا يمكنه استيعابها ولا قبولها في ساعة حزنه.

ومن الملاحظ على كثير من دعاتنا الكرام ميلهم إلى الترهيب وإغفالهم الترغيب، ظناً منهم أن النفوس التي انغمست في اللهو والمعاصي، والضمائر

التي انحرفت وبارت، لن يوقظها إلا الصياح والتهديد والوعيد، ولذلك فإننا نجد معظم خطبهم ومحاضراتهم تحمل عناوين من مثل : الموت، وعذاب القبر، والنار، ويوم الحساب، والتقصير، والتفريط، والويل والثبور، ومنكر ونكير، وغير ذلك من الأسماء المنفرة الثقيلة على النفس، التي تشعرك بأنك ذاهب إلى موقف حزن وهم وبكاء وعويل، ثم إن التناول نفسه والموقف ذاته يحتم على الخطيب أن يكون صارماً حازماً قوي الصوت خشن الألفاظ طالما حديثه ترهيباً، وهذه كلها أمور منفرة، قد تدعو الإنسان إلى الإعراض عنها وربما المكابرة.

في المقابل، لا نجد عناوين من مثل : نعيم القبر، حياة الأبرار، الحور العين، الرحمة والمغفرة، النعيم المقيم، وغير ذلك من الأسماء التي تدعو إلى البهجة والفرحة والاطمئنان.

إنك حين تدعوني إلى حضور محاضرة بعنوان «عذاب القبر» وسواك يدعوني إلى حضور محاضرة أخرى بعنوان «النعيم المقيم» فإن ميل النفس سيكون واضحاً في هذه الحال، وسأتجه إلى المحاضرة الأخرى هادئ البال، عظيم الأمل، وستكون لهجة الخطيب لينة هادئة محببة تهفو إليها الآذان والعقول، وتبعث الأمل في النفس من جديد، بينما سأتجه إلى المحاضرة الأولى خائفاً مضطرباً، قلق النفس، مؤنب الضمير، حاملاً وزري فوق رأسي، شبه فاقد لأملي، أظن أن يفعل بي فاقرة في موقفي ذاك مع كل رجفة أو صيحة.

إن الله سبحانه وتعالى حين خلق النار خلق الجنة، وبين سبحانه في كتابه نعيم الآخرة ووصفه بأكثر مما وصف عذابه، وجعل الخير أولاً والشر ثانياً، فالخير فطرة النفوس التي فطر الله عليها خلقه، ولا يتجرأ على الشر إلا الأقل الأقل من النفوس، وشواهد ذلك عبر تاريخنا وفي واقع يومنا لا تخطئها عين منصف.

ولو قارنا نسبة المصلين - مثلاً - إلى غير المصلين من المسلمين اليوم لوجدنا أن المصلين يفوقون الآخرين بمراحل عديدة - وهذا في زمن الغفلة والمغريات

كما تقولون – وهو دليل واضح على أن أمة محمد بخير حتى قيام الساعة، وأن ما يعتور بعض أفرادها من إهمال وتقصير لا ينبغي أن يكون مقياساً للحكم عليها، ولا ينبغي أن يكون مسوغاً للصياح والضجيج والوعد والوعيد، بل على العكس ينبغي تنمية الروح المسلمة الهادئة المحبة التي تظن الخير بربها مهما أخطأت حتى لا يصيبها القنوط، وعلى أئمتنا الكرام ومحدثينا الأفاضل أن يتمثلوا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ إن دعوة الكافر الذي لا يؤمن بالله ولا بمحمد عليه الصلاة والسلام تكون بالحسنى، فما بالك برجال شهدوا ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إن هؤلاء ليسوا بحاجة لمزيد تهديد ولا وعيد، وإنما هم بحاجة إلى تذكير بالنعيم وبالجنة وما أعد لهم فيها.

إن الطفل والشاب والشيخ الهرم حين يرتبط المسجد في ذهنه بالقمع والويل والصياح والنياح والتوعد والوعيد سيجد نفسه الأمارة بالسوء تستغل طبيعته الميالة إلى الهدوء والسلام والطمأنينة والفرح وتدعوه في خبث إلى هجر المسجد، أو تجاهل ما يتوعده به المسجد.

إننا نطمح لأن تكون مساجدنا واحة للأمل تهفو إليها النفوس التواقة إلى العفو والتوبة والغفران والهدوء والنعيم والسلام، إنني أريد مشاهدة الفرحة على وجه طفلي حين أغدو به إلى المسجد، ولا أتمنى ـ كما لا تتمنون ـ أن يصبح المسجد عبئاً على النفوس الغافلة والعليلة أصلاً.